

عنوان البحث

علم الكلام الديني: المعطيات الواقعية والإستشرافات المأمولة

دراسة تاريخية تحليلية ومنهجية لجهود دعاة العلم الجديد

د/ مونير يونس¹

¹ باحث في العقيدة والفكر الإسلامي، المملكة المغربية، جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال

البريد الإلكتروني: mouniryounes2015@gmail.com

تاريخ القبول: 2021/07/24م

تاريخ النشر: 2021/08/01م

المستخلص

يلعب علم الكلام الديني دوراً رئيسياً في المنظومة المعرفية لأي دين، كما يحتلّ مركزاً حساساً فيها، ومن الطبيعي وفقاً لهذه المكانة التي يتميز بها- أن يمثل التنامي أو التغييرات أو التعديلات الطارئة على هذا العلم تغييراً بنيوياً بالنسبة لخطوط الخارطة المعرفية الأخرى كافة، وفي هذا السياق، يأتي مشروع تجديد علم الكلام، والذي جرى ويجري التركيز عليه في المحافل الفكرية والدينية المعاصرة سيما في العقد الميلادي الأخير؛ إذ يحاول هذا المشروع أن يضع حدّاً لحالات الركود التي سيطرت على الدراسات الكلامية في القرون الأخيرة ويعيد بعث النتاج الكلامي من جديد ضمن آليات عمل متناغمة مع تطورات المعرفة الإنسانية سيما الحاصلة بفعل تأثيرات العاصفة الغربية التي ضربت العالم من أقصاه إلى أقصاه، وذلك بهدف تحقيق التنمية الفكرية لهذا العلم ووضعه في سياقه المناسب له فعلاً.

الكلمات المفتاحية: علم الكلام الديني-العقيدة الإسلامية- تجديد علم الكلام- الكلام الجديد-العقل الإسلامي-الإنسان-الواقع الإسلامي المعاصر.

RESEARCH ARTICLE

RELIGIOUS THEOLOGY: REALISTIC DATA AND HOPEFUL FORECASTS**A historical, analytical and systematic study of the efforts of the advocates of a new science****Dr. Monir Younes¹**

¹ Researcher in Islamic Faith and Thought, Kingdom of Morocco, University of Sultan Moulay Slimane Beni Mellal
Email: mouniryounes2015@gmail.com

Published at 01/08/2021**Accepted at 24/07/2021****Abstract**

Religious theology plays a major role in the cognitive system of any religion, and occupies a sensitive position in it, and it is natural - according to this position that is characterized by it - that the growth, changes or modifications of this science represent a structural change in relation to all other knowledge map lines, and in this context, The project of renewing theology, which has taken place and is being focused on in contemporary intellectual and religious forums, especially in the last decade, comes;

This project attempts to put an end to the stagnant states that have dominated verbal studies in recent centuries and resurrects the verbal production anew within working mechanisms that are in harmony with the developments of human knowledge, especially those caused by the effects of the Western storm that struck the world from one end to the other, with the aim of achieving intellectual development This knowledge and put it in its appropriate context.

Key Words: Religious theology - Islamic belief - renewal of theology - new speech - Islamic mind - human - contemporary Islamic reality.

مقدمة:

إن علم الكلام كغيره من العلوم الإسلامية تحكمت في مساره وتحديد وجهته مجموعة المكونات والعناصر التي واكبت نشأته، وتلك العناصر، كما هو معلوم، تنتمي إلى عصر مضى وانقضى، ولم يبق منه سوى ما حفظه لنا التاريخ. ولم يكن الفكر الكلامي الذي ولد في ذلك العصر إلا مرآة ارتسمت فيها الأسئلة والتحديات والهموم المتداولة آنذاك، فلماذا نسعى لتعميم الآراء والمفاهيم الكلامية التي تبلورت في فضاء تلك الأسئلة والتحديات، لأسئلة تطرحها حياتنا الراهنة، وتنبثق من تحديات تختلف عن التحديات الماضية اختلافاً تاماً؟! وفي ضوء ذلك ينبغي أن نشير إلى أبرز أبعاد القصور والعجز والركود في التراث الكلامي، بغية اكتشاف البواعث الموضوعية للدعوة لتجاوز الكلام التقليدي، وإعادة بناء التفكير الكلامي في إطار استفهامات العصر ومعارفه. تتكون هذه المقالة العلمية من مقدمة، وأربعة مباحث وخالصة، ثم النتائج وتوصيات الدراسة، ولائحة بالمصادر والمراجع.

مشكلة البحث:

إنّ طرح إشكالية مشروعية تجديد علم الكلام بما تعكسه من صعوبات إجرائية في تمثّل العلم على حقيقته، فهل نأخذ بمفاهيمه الأولى كما فعل الشيخ محمد عبده (ت 1905) حينما ذهب إلى أنّ الكلام أساساً "علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يكون عليه وما يجوز أن ينسب إليه وما يمتنع أن يلحق به"¹، أم نحافظ على دلالاته المتأخرة بما فيها من مجادلات، مطارحات، مناظرات، ومناهج وموضوعات جديدة للدفاع عن أصول الدين ومقاصد العقيدة الحقيقية.

أهمية البحث:

تعكس الحاجة إلى علم كلام جديد أزمة خطيرة عاشها -وما زال يعيشها- الفكر الإسلامي المعاصر، تتمثّل في صدمة حضارية انتابت رواد النهضة العربية وتوارثتها الأجيال عندما اكتشفوا تخلفهم وتقدّم الغرب عليهم، وجد الفكر الديني نفسه بعد عقود من الجمود والانغلاق غريباً في سياق إنساني يتقدّم ويتطور بصفة غير متناهية، ولقد دفع احتكاك المسلمين بغيرهم من الثقافات، وانبلاج عصر المعلومات والاتصالات وما يطرحه من تحديات فكرية إلى ظهور أصوات تدعو إلى تجديد علم الكلام أو طرح علم كلام جديد يستجيب لتحديات العصر وحاجيات المسلمين الثقافية.

منهجية البحث:

من أجل تحقيق أهداف الدراسة تم اتباع: **المنهج التاريخي**: باعتباره المنهج الذي يقوم بإحياء الأحداث التي حصلت في الزمن الماضي ومدى تأثيرها على الأحداث التاريخية لعلم الكلام الديني، ومجرى التاريخ في الحاضر والمستقبل والموضوعات المطروحة في علم الكلام الجديد وتحليلها، والتأكد من صحتها. **والمنهج التحليلي الوصفي**: فهو يُساعد الباحثين في علم الكلام الديني في جمع المعلومات والبيانات، مع إيجاد وسائل مختلفة لتفسيرها. ويمكن عن طريقه أن يربط الباحث في علم الكلام الديني بين الموضوعات؛ من خلال طرح أسئلة أو وضع فرضيات. يستطيع الباحث من خلال هذا المنهج من استخراج النتائج وفقاً لشواهد وقرائن متنوعة.

¹ - الشيخ محمد عبده، رسالة التوحيد، ص: 4.

الدراسات السابقة:

ومن أهم بواكير الأعمال التي وقفت عليها في ميدان تجديد علم الكلام أذكر:

-علم الكلام الجديد للعالم الهندي شلبي النعماني (ت1911م): لا شيء يشبه علم الكلام الجديد في تفكير النعماني، كل شيء يشبه الكلام القديم. النعماني يستأنف القديم بلغة أكثر وضوحاً ولا يمكن الجزم بأن النعماني أول من نحت مصطلح «علم الكلام الجديد» الذي أضحى عنواناً للاتجاه الحديث في إعادة بناء علم الكلام، لكنه كان أول مؤلف يؤلف كتاباً تحت هذا العنوان.

-الرد على الدهريين لجمال الدين الأفغاني (ت1897م): ألف جمال الدين الأفغاني الكتاب للرد على الملحد المعاصرين، بحيث وضع السيد جمال الدين الأفغاني رسالة قصد بها الرد على الماديين أو الفلسفة المادية أسماها «الرد على الدهريين» وضعها رحمه الله باللغة الفارسية، ونقلها إلى العربية الإمام محمد عبده كبير لاهوتي مصر في القرن الماضي، مستعيناً على ترجمتها بفاضل من فضلاء الأفغانيين. ومن يقرأ هذه الرسالة ويلم بأطرافها يجد أن فيها من الحجج ودامغ البراهين ما يصح أن يقام سداً في وجه الفلسفة الأبيقورية المادية بمختلف أشكالها.

-رسالة التوحيد لمحمد عبده (ت1905م): ومن خلال هذا التعريف نلاحظ أن محمد عبده عرّف التوحيد بالطريقة نفسها التي يُعرّفها به معظم علماء الكلام، وهو التعريف المتضمن ركني التوحيد الرئيسين: توحيد الألوهية (توحيد الذات)، وتوحيد الربوبية (توحيد الفعل)، وقدم محمد عبده في مكان آخر مقصوده من هذا التعريف بشكل تفصيلي على طريقة علماء الكلام السابقين عند ما قال: جاء الدين الإسلامي بتوحيد الله تعالى في ذاته، وأفعاله، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بها دلّت عليه آثار الصفات العلية، كالعلم، والقدرة، والإرادة، وغيرها.

-تجديد الفكر الديني لمحمد إقبال (ت1938م): برزت أفكار إقبال التنويرية في كتابه «تجديد التفكير الديني في الإسلام» الذي مثل محاضرات ألقاها في عشرينيات القرن الماضي، ورأى فيها أنّ المهمة المطروحة على المسلم المعاصر ذات حجم لا متناه. عليه أن يعيد التفكير في مجمل النظام الإسلامي دون أن يقطع كلياً مع الماضي. وأحد الشروط الأساسية في عملية التجديد هي تناول العلوم الحديثة تناولاً نقدياً، لأن "الطريق الوحيدة التي ما تزال مفتوحة أمامنا تتمثل في التعامل مع العلوم الحديثة باحترام لكن بموقف مستقل مع ذلك، وتقدير التعاليم الإسلامية على ضوء ما تمنحه هذه العلوم من إنارات".

-مدخل إلى علم كلام الجديد لمحمد مجتهد شبستري (ولد عام 1936م): يمثل هذا الكتاب أحدث محاولة لتأصيل معالم ومرتكزات علم الكلام الجديد، يقدمها عالم دين ومتقف إسلامي مستنير، عرف باهتمامه بدراسة علم الكلام والفلسفة، والمقارنات بين الأديان والمذاهب. وجاءت أفكاره وآراؤه في هذا الكتاب بشكل إجابات على تساؤلات، وهذا يساهم في الحوار الفكري في إبراز المسائل المعرفية في الفكر الإسلامي المعاصر، ويسعى لإعادة بناء العلوم الإسلامية في إطار المتطلبات الراهنة للمسلمين.

-مقدمة في علم الكلام الجديد للمفكر العراقي عبد الجبار الرفاعي (ولد عام 1954م): يرى صاحب كتاب «علم الكلام الجديد» أن المعنى الديني الذي ينتجه علم الكلام القديم لا يمكنه إرساء أسس للعيش المشترك بين مختلف

الأديان والثقافات، وبناءً علاقات دولية سلمية تحقق المصالح المشتركة بين الشعوب؛ على اعتبار أنّ المقولات الكلامية الموروثة لا تصلح منطلقاً للحوار الصادق المنتج بين الأديان، الذي لا يمكن أن يؤدي ثماره إلا بالإيمان بالحق في الاختلاف، وتبنيّه أصلاً في أيّ حوار وتفاهم ونقاش مع المختلف في الدين، والعمل على اكتشاف ما هو جوهري في كلّ دين.

المبحث الأول: علم الكلام.. المفهوم والتسمية.

المطلب الأول: المفهوم:

إن العودة إلى الكتابات الكثيرة التي تطرقت لمجال علم الكلام نجد العديد من التعريفات لهذا الفرع من العلوم الإسلامية منها كما عرفه العلامة عبد الرحمن بن خلدون (توفي 808هـ) بأنه "علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الإعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد"² أو هو "علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية، بايراد الحجج ودفع الشبه، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد، فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام"³، على حد تعبير عضد الدين الإيجي (توفي 756هـ).

وعرفه سعد الدين التفتازاني (توفي 791هـ) بأنه: "الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية"⁴. وعرفه أيضاً بقوله: "إنه العلم بالقواعد الشرعية الإعتقادية، المكتسب من أدلتها اليقينية"⁵. أما أبو ناصر الفارابي (توفي 980م) فيرى بأن علم الكلام: "ملكة يقتدر بها الإنسان عن نصره الآراء والأفعال المحمودة التي صرح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها بالأقوال"⁶. ويرى إبراهيم الباجوري (توفي 1860م) أنه: "علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية مكتسبة من أدلتها العقلية والنقلية: القرآن والسنة الصحيحة لإقامة الحجج والبراهين العقلية والنقلية ورد الشبهات عن الإسلام"⁷.

وبتفصيل أدق، فإن علم الكلام قد عرف من حيث موضوعه: بأنه المعرفة المتعلقة بإدراك موضوع الإيمانيات أي الإيمان العقلي بالله تعالى بإثبات أصلين عقليين هما التوحيد والعدل وبالنبوة والشريعة على الجملة أي أصل الشريعة.

ومن حيث المنهج: هو تأسيس الاستدلال على يقينيات عقلية، كالمدرجات الحسية، ومن حيث الغرض منه: هو إنتاج المعرفة وإدراكها موضوعياً، لينتقل الإنسان ويرتقي من حضيض التقليد إلى ذروة اليقين عبر النظر والتفكير والحجة والبرهان.

ولعل القاسم المشترك بين جملة تلك التعريفات يتلخص في كون علم الكلام علماً يقصد منه التوفيق بين النقل والعقل للاستدلال والنظر على صحة القواعد الإيمانية النقلية المتعلقة بوجود الله ذاتاً وصفة وأفعالاً، وبكل العوالم

² - عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة بن خلدون، ص: 423/429.

³ - عضد الدين الإيجي، المواقف في علم الكلام، ص: 7.

⁴ - سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد، 179/1.

⁵ - نفس المصدر، 179/1.

⁶ - أبو ناصر الفارابي، إحصاء العلوم، ص: 131.

⁷ - إبراهيم الباجوري، تحفة المريد عن جوهرة التوحيد، ص: 38.

الغيبية.

بناءً على التعريفات السابقة نستخلص الآتي:

1- موضوع علم الكلام هو إثبات العقائد الدينية من حيث وجود الله وما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقه تعالى، وصدق الرسل وما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقهم، بخلاف باقي أركان الإيمان -إذا صح التعبير- من الإيمان بملائكته وكتبه تعالى وبالقدر خيره وشره.

2- مباحث علم الكلام هي: الإلهيات، النبوات، السمعيّات.

3- منهج المتكلم: هو استخدام الأدلة النقلية من قرآن وسنة، والأدلة العقلية لإثبات ودعم حججه.

4- المتكلمون يتخذون العقائد الدينية كقضايا مسلم بها عن طريق الوحي، ثم يستدلون عليها بأدلة عقلية لتدعيم تلك القضايا.

5- من هنا يتضح الفرق بين الفيلسوف والمتكلم، المتكلم يستند إلى ما جاء به من اعتقادات ثم يلتمس الحجج العقلية التي تدعمها، والفيلسوف يبحث بعقله ويرى ما يتوصل إليه الدليل دون النظر إلى ما جاء به أي دين، فالمتكلم يعتقد ثم يستدل والفيلسوف يستدل ثم يعتقد.

المطلب الثاني: التسمية:

اختلف الباحثون في سبب تسمية هذا العلم بهذا الاسم، فقيل لأن علم الكلام يتناول ضمن مباحثه قضية "كلام الله"، وهي أهم مقولة كلامية.. أو لأن الناس اختلفت مواقفهم تجاه هذا العلم، فمنهم من تحفظ في خوض غمار هذا العلم بحجة تناوله لقضايا يقصر العقل عن إدراكها، ومنهم من تكلم في هذه الغيبيات وتسموا بالمتكلمين.

جاء علم الكلام ليواجه جملة من التحديات والإشكالات التي واجهت العقل المسلم على مستوى العقيدة، إذ إن علم الكلام يقوم شاهداً على الدور التاريخي الذي قام به المتكلمون للدفاع عن العقيدة في مواجهة مختلف التيارات والأفكار التي كانت تحوم حول هذه العقيدة بغية تشويهها وتحريفها.

بناءً على ما سبق نورد ستة أقوال في سبب تسمية هذا العلم بـ"علم الكلام" وهي:

1- لأن عنوان مباحث المتكلمين في العقائد كان "الكلام في كذا وكذا" فسُمي الكلام لذلك

2- لأنه يُورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيّات وإلزام الخصوم فهو لها كالمنطق والفلسفة.

3- لأن العلم لا يتحقق إلا بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين، على حين أن غيره من العلوم قد يتحقق بالتأمل والمطالعة.

4- لأنه أكثر العلوم خلافاً فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والرد عليهم.

5- لأنه لقوة أدلته صار كأنه هو الكلام دون ما عداه من الكلام.

6- لأنه يقوم على الأدلة القطعية المؤيد أكثرها بالأدلة السمعية لذلك كان أكثر العلوم تأثيراً في القلب وتغلغلاً، فسُمي الكلام مشتقاً من الكلم وهو الجرح.

المبحث الثاني: علم الكلام.. التحديات الواقعية والإكراهات التاريخية.

المطلب الأول: التحديات الواقعية:

إن ما ذكرناه عن واقعية الفكر العقدي ودورها في مواجهة التحديات الواردة على العقيدة الإسلامية لم يمنع من مناهضة هذا العلم منذ بداياته الأولى والتي كان لها أثرها البالغ على هذا العلم فيما بعد. فمنذ الأيام الأولى لولادة التفكير الكلامي انبرى لمناهضته مجموعة من رجال الحديث الذين قاوموا أية محاولة لتدبير النصوص المتشابهة وتأويلها وأسرفوا في إصاق شتى أدلتهم بمن يحاول ممارسة هذا اللون من التفكير بقطع النظر عن النتائج التي ينتهي إليها حتى أمسى شعارهم "فر من الكلام في أي صورة يكون كما تفر من الأسد"⁸.

بل نقل عن الإمام مالك بن أنس (179هـ) حظر السؤال في المسائل واعتبار مثل هذا السؤال بدعة، فحين سئل عن كيفية الاستواء على العرش؟ أجاب: "الإستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"⁹. ولهذا وسم مالك بن أنس جميع الذين يتعاطون التفكير والحديث في ذات الباري وصفاته بالمبتدعين وكان يحذر من هذه البدع.

ويروى عن الإمام مالك بن أنس كما يقول جلال الدين السيوطي: "أن أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان وكان يقول: من طلب الدين بالكلام فقد تزندق"¹⁰.

وعقب الإمام مالك بن أنس، ناهض الإمام الشافعي (204هـ) أيضا المنحى الكلامي في التفكير فشن حملة عنيفة على المتكلمين وبالغ في التشنيع على هذا اللون من التفكير فنقل عنه قوله بعد مناظرته مع أحد هؤلاء "لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما توهمته قط ولان يبتلي المرء بجميع ما نهى الله عنه سوى الشرك خير من أن يبتلى بالكلام"¹¹.

كما نقل عنه قوله: "ولو يعلم الناس ما في علم الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد"¹² وقوله أيضا: "حكيم في أهل الكلام، أن يضربوا بالجريد ويظاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك السنة وأخذ في الكلام"¹³.

وينسب للإمام الشافعي قول حانق يحذر فيه أبا إبراهيم المريني لما سأله بمسائل نهج فيها منهج أصل الكلام، فقال له الإمام الشافعي: "يا بني هذا علم إن أنت أصبت فيه لم تؤجر، وإن أنت أخطأت فيه كفرت..."¹⁴.

ثم جاء من بعده الإمام أحمد بن حنبل (241هـ) فاقتفى السبيل نفسه وأسرف في مقارنة التفكير الكلامي

⁸ - جولد تسيهر، أجناس العقيدة والشريعة في الإسلام: تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الدين الإسلامي، ص: 11.

⁹ - تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 3/126.

¹⁰ - جلال الدين السيوطي، صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام، ص: 96.

¹¹ - الدكتور عبد الجبار الرفاعي، مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، ص: 17.

¹² - عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر، ص: 248.

¹³ - طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، 2/26.

¹⁴ - تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 1/241.

حتى زج نفسه بسجالات ومماحكات صاحبة مع المتكلمين قادته في خاتمة المطاف إلى أن يضرب بالسوط في مناظرته مع أبو عبيد الله أحمد بن أبي داؤود حول مسألة خلق القرآن¹⁵. ونقلت عن الإمام أحمد بن حنبل أقوال قاسية في ذم الكلام والمتكلمين منها قوله: "لا يفتح صاحب كلام أبدا ولا ترى أحدا ينظر في الكلام إلا وفي قلبه مرض"¹⁶. وقوله: "علماء الكلام زنادقة"¹⁷.

وواصل الحنابلة مناهضة علم الكلام تبعا لنهج شيخهم فحاضوا صراعات حادة مع أصحاب الكلام، وتوكلوا على سلاح التكفير في هذا الصراع، وبات تراثهم رافدا تستقى منه فتاوى تكفير فرق المسلمين تلك الفتاوى التي عملت على تعميق انقسامات الأمة وظلت إلى الآن تجهض مساعي الحوار الإسلامي.

وقد تغلغت أفكار التيار المناهض للكلام في وعي عامة المسلمين، فبدا الكثير منهم ينظر بارتياح للفكر الكلامي، بل تنامت هذه الحالة وصارت العلوم العقلية برمتها ينظر إليها الناس بتوجس وريبة وأشيع مناخ مشبع بالتهمة حول هذه العلوم، ومن نماذج بعض أسماء الكتب الكلامية، كتاب أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي (481هـ) بعنوان "ذم الكلام وأهله" وكتاب الغزالي (505هـ) بعنوان "إلجام العوام عن علم الكلام" وكتاب موفق الدين بن قدامة المقدسي (620هـ) بعنوان "تحريم النظر في كتب أهل الكلام".

إن هذا الموقف من علم الكلام كان له تأثير في النظرة المستقلة للمسلمين لعلم الكلام وكيفية التعامل معه في واقعهم الراهن.

المطلب الثاني: الإكراهات التاريخية:

إن علم الكلام كغيره من العلوم الإسلامية تأثر في نشأته ومساره بمجمل الأحوال السياسية والاجتماعية في الحياة الإسلامية، فعندما تكون الأمة في حالة نهوض وتشكل الإطار الاجتماعي الملائم لنمو المعرفة وتطور العلوم، ينمو ويتكامل التفكير الكلامي، كغيره من أبعاد التفكير الإسلامي الأخرى.

أما إذا دخلت الأمة في مسار الانحطاط فسوف يتداعى الإطار الاجتماعي لنمو المعرفة وتسود حالة من تشتت العقل وتشوه رؤاه، فيتراجع دور العقل ويضمحل التفكير الكلامي وتغدو المحاولات الجديدة استئنافا للمحاولات الماضية لا تتحضر إشكالياتها ومسائلها بل وبيانها وأساليب تعبيرها.

إن مراجعة سريعة لمسار التفكير الكلامي عبر أربعة عشر قرنا تدعونا للوقوف عند عدة مراحل مر من خلالها هذا التفكير، في المرحلة الأولى التي امتدت من القرن الهجري الأول إلى القرن الهجري الثالث، كان الفكر الكلامي يتحرك في مدارات ما يستجد من استقهامات ويسعى لصياغة مفهومات واستنباط قواعد ومرتكزات أساسية للاعتقاد، ومنذ القرن الثالث انتهج المتكلمون منهجا آخر توغل معه الفكر الكلامي في أفق جديد ودشنت فيه مرحلة تالية، اشتغل فيها المتكلمون ببناء علم الكلام وتأسيس مدارسه واتجاهاته المعروفة في التاريخ الإسلامي، وتمخضت جهود علماء الكلام عن تبلور المدارس الثلاثة الكبرى في الكلام، المعتزلة والشيعة والأشاعرة.

لكن ازدهار التفكير الكلامي لم يمض في الدرب من دون أن يدخل في متاهات من الجدل والسجالات التي أسهم فيها مناوئو علم الكلام بدور تحريضي واسع، مضافا إلى تسييس المواقف الكلامية وانتقال المناظرات

15- أحمد بن يحيى المرتضى، طبقات المعتزلة، ص: 124-125.

16- طاش كبرى زادة، مفالغ السعادة ومصباح السيادة، 26/2.

17- أبو حامد الغزالي، قواعد العقائد، ص: 87.

من دور العلم "وهي المساجد وقتنذ إلى قصور السلاطين مثلما جرى في مسألة خلق القرآن وغيرها حتى انتهى ذلك إلى تصفية مدرسة الاعتزال والقضاء عليها قضاء تاما بقرار سياسي في فترة لاحقة"¹⁸.

غير أن هذا المخاض الذي التهم التفكير الكلامي واستنزف الطاقة العقلية لعلماء الكلام سنوات طويلة، لم يعطل هذا التفكير وإنما استطاع التفكير الكلامي أن يجتاز هذا المخاض بمعاناة بالغة وجهود شاقة وظهرت في القرون الرابع والخامس والسادس والسابع، أهم المدونات الكلامية مثل "المغني" للقاضي عبد الجبار الهمداني (415هـ) وأخيرا "التجريد" لنصير الدين الطوسي (672هـ) الذي كان خاتمة للمرحلة الثانية في مسار التفكير الكلامي ولعب دورا بارزا في تأسيس الفلسفة الكلامية التي تبدو كأنها الخالية من شوائب وزيادات وإضافات المتكلمين المتصارعة مع تيار الفلسفة، حتى امتد تأثيره إلى زمان يتأخم عصرنا الحديث ولقد صار كتاب "التجريد" منذ الربع الأخير للقرن السابع نموذجا يترسمه المؤلفون في علم الكلام ومن أمثال ذلك الكتب المعتمدة فيه عند الباحثين ككتاب "المواقف" لعضد الدين الإيجي (756هـ) وكتاب "المقاصد" لسعد الدين التفتازاني (792هـ) وكتاب "المجلى" لابن أبي جمهور الإحسائي (901هـ)¹⁹.

ولم يشهد التأليف في علم الكلام أعمالا إبداعية بعد ظهور كتاب الطوسي "التجريد" وظلت سائر المؤلفات المتأخرة عنه إما شروحا له ولمتون الكلام السابقة، وإما مدونات ومتونا جديدة غير أنها ما فتئت تستعيد آراء تلك المدونات ومسائلها.

وكان ذلك إيذانا بانتقال علم الكلام إلى مرحلة ثالثة، بدأت بركود التفكير الكلامي واستثنافه للتراث الكلاسيكي وتواصلت مدة طويلة تناهز خمسة قرون من القرن التاسع إلى نهاية الثالث عشر الهجري تجمد فيها التفكير الكلامي ولم تتجاوز اهتمامات الدارسين ألفاظ التراث الكلامي، ومعماريته وألغازه فأسفروا في تدوين الهوامش والشروح التوضيحية وبهرتهم بارعة القدماء في اختزال الأفكار وتكثيف النصوص، فشاع لديهم شعور موهوم بأن الآراء التي تحكيها تلك النصوص هي آراء أبدية، يجب تعميمها لكل زمان ولا يجوز أبدا التفكير خارج مداليلها وفحواها واستحالت مهمة المهتمين بهذا العلم إلى حراسة متونه، والمبالغة في إطرائها وتمويل مضمونها ومقاومة أية محاولة للتفكير خارج مداراتها.

لكن التفكير الكلامي استيقظ في نهاية القرن الثالث عشر وذببت الحياة من جديد في علم الكلام فحاول أن يغادر حالة السكون التي لبث فيها عدة قرون، واستهل جماعة من المهتمين بدراسة هذا العلم عهدا جديدا بدأ بإحياء علم الكلام واستدعائه إلى العصر الحديث ثم تلا ذلك العمل على إعادة بنائه وتحديثه.

المبحث الثالث: علم الكلام القديم.. تاريخ التأسيس والإشكاليات العقدية.

المطلب الأول: تاريخ التأسيس.

ظهر علم الكلام في نهاية القرن الأول للهجرة، ووصل إلى غاية اكتماله ونضجه في القرن الرابع الهجري، ثم اصطدم بالفلسفة، لأسباب سياسية غالبًا، في أواسط النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (تهافت الفلاسفة،

¹⁸ - الدكتور علي عبد الفتاح المغربي، حقيقة الخلاف بين المتكلمين، ص: 125.

¹⁹ - عبد الأمير الأعسم، الفيلسوف نصير الدين الطوسي مؤسس المنهج الفلسفي في علم الكلام الإسلامي، ص: 149.

وفضائح الباطنية)، ولا سيما مع أبي حامد الغزالي الذي أدخل، على نحو رسمي، وإن كان سبقه في ذلك ابن حزم، المنطق الصوري اليوناني ليحتل منزلة رفيعة بوصفه أداة للاستدلال.

إن علم الكلام كغيره من العلوم الإسلامية تحكمت في مساره وتحديد وجهته مجموعة من المكونات والعناصر التي واكبت نشأته، وتلك العناصر كما هو معلوم تنتمي إلى عصر مضى وانقضى ولم يبق منه سوى ما حفظه لنا التاريخ، ولم يكن الفكر الكلامي الذي ولد في ذلك العصر إلا مرآة ارتسمت فيها الأسئلة والتحديات لأسئلة تطرحها حياتنا الراهنة وتتبع من تحديات تختلف عن التحديات الماضية اختلافا تاما؟، في ضوء ذلك ينبغي أن نشير إلى أبرز أبعاد القصور في التراث الكلامي بغية اكتشاف البواعث الموضوعية للدعوة لتجاوز الكلام التقليدي وإعادة بناء التفكير الكلامي في طور استفهامات العصر ومعارفه الجديدة.

إن منظومات الكلام كانت كما قال ابن رشد بحق تندرج تحت "صناعة الجدل"²⁰، وفي هذا الإطار قال أبو حامد الغزالي: "قد يظن أن فائدته -علم الكلام- كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيات، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل في أكثر من الكشف والتعريف، وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قل له بعد حقيقة الخبرة، وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم آخر تناسب نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود"²¹.

إن علم الكلام لم ينطلق في بداياته الأولى إلى تحقيق (نظرية المعرفة) بل حاول تجاوز المشكلات النظرية التي لا تتعلق بمقالات التقسيم المدرسي، إلى النتائج التي يمكنهم عن طريقها (الجدل) بإلزام الخصوم وإفحامهم، ومثال ذلك ما قام به الملاحمي من المعتزلة، حين عرّف المعرفة الضرورية بقوله: "إن الضروري هو علم لا يقف على استدلال العالم به، إذا كان يصح فيه الاستدلال"²²، فالمهم أن ينطلق من معرفة ضرورية يبني عليها كلامه اللاحق المنتصر للمعتزلة، بقطع النظر عن كل البحوث التي ستحدد طبيعة تلك المعرفة وتبحث في مصدرها، وعلاقتها بغيرها، فرأى أن هذا التعريف سيتفق عليه الجميع حتى ولو كانت نظرتهم إلى الضرورة العقلية مختلفة، قال في معرض آخر: "يستمر هذا الحد على قول من يقول 1- إن العلوم الضرورية مفعولة في العاقل. 2- أو قيل: إنها موجبة فيه. 3- أو قيل في بعضها: إنه مفعول مبتدأ فيه، وفي بعضها: إنه موجب عن الإحساس أو نحوه"²³. فبقطع النظر عن كل هذه الأقوال، يعنيه أن يتم تعريفها بما قال به، والانطلاق من هذا التعريف في الحجاج الجدلي مع غيره من الطوائف والفرق، وهذا كان على حساب التحقيق في البحوث المتعلقة بنظرية المعرفة في المقام الأول، ولذا فإن "المعتزلة والأشاعرة والصوفية لم يكن لهم بحث في المعرفة سوى مسائل متفرقة كمقدمات وتمهيدات للنظريات التي قدموها"²⁴.

²⁰ - ابن رشد الحفيد، مناهج الأدلة عن عقائد الملة، ص: 139.

²¹ - أبو حامد الغزالي، قواعد العقائد، ص: 101.

²² - محمود بن محمد الملاحمي الخوارزمي، المعتمد في أصول الدين، ص: 22.

²³ - المصدر السابق، ص: 22.

²⁴ - محمود زيدان، نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، ص: 222.

وهذا جعل الغفلة ملازمة للمتكلمين عن الاتساق الداخلي، إن تجاوز تلك المباحث كان في الظاهر يقوي الأطروحات الجدلية، ويزيد من أثر الحجج الخطابية لكل فرقة، لكنه في الواقع كان يضعف القوة النظرية لمباحثها، ومثال ذلك: أن الأشعري²⁵ الذي كان قد سلم بأن الله لا يشار إليه، يقول بأنه يُرى يوم القيامة، لكن دون جهة، وهذا قد اضطره ليوضح ما المقصود بالرؤية عنده إذ لم يكن عنده فيها أي مدخلات حسية في العين لكنه بدل هذا التوضيح، كان يحاول الففز عن نفس المشكلة مراراً، فالمشكلة النظرية ليست هي الرئيسية في الكلام الأشعري، بل يأتي في المقام الأول إفحام المعتزلة الذين نفوا الرؤية، على أنهم مقصده الرئيسي.

إن موضوعات علم الكلام القديم على الصعيد النظري عديدة من أهمها: مسألة كلام الله، خلق القرآن، ذات الله وصفاته، قدرة الإنسان وارتباطها بمشيئة الله وإرادته، الإيمان والكفر... الخ.

لقد كان علم الكلام القديم استجابةً لقضايا ومشكلات عرضت للمسلمين في زمن مضى، لكنه بقي على صورته ذاتها، في متونه المعروفة المعتمدة، يعالج الخلافات العقائدية ذاتها، والتي تدرّس كما هي في المعاهد الشرعية في أنحاء العالم العربي والإسلامي. فهل يبقى له ما يقوله في زمننا هذا؟ وهل يمكن الإفادة منه في مشكلات العصر ومستجداته؟ وما الآفاق المعرفية والمنهجية التي يمكن لعلم الكلام الجديد أن يفتحها للمسلمين في الزمن المعاصر للدفاع والذود عن العقيدة الإسلامية؟.

المطلب الثاني: الإشكاليات العقدية:

المطلوب من الفكر العقدي أن يعالج المشاكل التي تحدث في الأمة متعلقة بالأسس العقدية العامة دون الفروع الجزئية من التطبيقات السلوكية التي تهتم بها ألوان أخرى من الفكر، ومن ثم تكون مهمته ذات طابع أصولي كلي. وذلك هو المبرر الذي يدرج به ضمن الفكر الفلسفي بالمعنى العام.

والمأمل في الوضع العقدي الراهن للمسلمين يجد أن المشاكل التي تنتابه ترجع في معرض تنوعها وتعددتها إلى مشكلتين رئيسيتين تولدتا من عهد الانحطاط الذي تجمد فيه الفكر الإسلامي وانفصل عن مجريات الواقع، ومن التحدي الثقافي الحضاري الغربي الذي واجه الأمة الإسلامية منذ قرنين من الزمن.

أما المشكلة الأولى فهي الانفصال أو شبه الانفصال الذي وقع بين المرجعية العقدية وبين المظاهر التطبيقية في مختلف وجوه الحياة. فالدين الإسلامي هو عقيدة تتفرع عنها شريعة تشمل كل أوجه التصرف الإنساني بحيث يكون كل حكم من أحكام السلوك منقرا عن أصل من أصول العقيدة التي ستجمعها حقائق أساسية ثلاث: الألوهية والنبوة والبعث بحيث يكون كل منشط من مناشط المسلم، وكل اجتهاد من اجتهاداته في شؤون الحياة مستمداً من أصول العقيدة، جارياً بحسب مقتضياتها.

ولكن مجريات الواقع الإسلامي خلال عهد التراجع الحضاري أفضت إلى تراخ في الصلة بين أصول العقيدة ومناشط الحياة المختلفة، فلم تعد مظاهر السلوك المختلفة تندفع في تلقائية ووضوح من مرجعيتها العقدية، وغدت حقائق العقيدة تشبه أن تكون تصديقات ذهنية غايتها في ذاتها، وضعف الشعور بغايتها السلوكية. وقد أدى هذا الوضع إلى ما يشبه الانفصال بين الاجتهادات الفرعية ومرجعيتها العقدية. وخذ إليك مثلاً في ذلك حقيقة التوحيد التي كانت في عهود الازدهار الإسلامي تطبع حياة المسلمين كلها تشريعاً وأدباً وفنوناً وعمارة، ثم أصبحت بعد

²⁵ - أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ص: 6.

ذلك منحسرة في أذهان المسلمين إلى بعد واحد تجريدي هو وحدانية الذات الإلهية، وتقلص أثرها في مناحي الحياة العملية.

وقد استفحل هذا الوضع لما انفتح المسلمون على الحضارة الغربية بمنجزاتها الباهرة، وجعلوا يقتبسون منها ويقلدون فيها خبط عشواء على غير هدى من مرجعية عقلية ترشد ذلك الاقتباس، وتجعله في إطار من الدين، وقد ظهر ذلك فيما اقتبس المسلمون من آداب وفنون وعلوم إنسانية وطرز عمرانية، حتى إنه يمكن القول بأن الواقع الإسلامي اليوم يجري على غير هدى عقدي، ويصدر على غير قاعدة أيديولوجية إسلامية واضحة. وأما المشكلة الثانية فهي الغزو الأيديولوجي الغربي الذي استهدف منذ زمن العقيدة الإسلامية أساساً، ومظاهرها السلوكية في مختلف مظاهر الحياة. وقد كان هذا الغزو الأيديولوجي شبيهاً بالغزو الأيديولوجي الذي حدث في هذا القرن الثاني من قبل أهل المذاهب والأديان إلا أنه صادف من المسلمين ضعفاً حضارياً وفكرياً، واستعدى عليهم بمنجزات العلم، وقوة الحضارة فإذا به غزو شامل للمنظومة الإسلامية كلها، تُسخر فيه الفلسفة والعلم والإعلام جميعاً، بل والتكنولوجيا المادية أيضاً.

وقد أحدث هذا الغزو الأيديولوجي أثره البين في حياة المسلمين ليس على مستوى السلوك فحسب ولكن على مستوى الاعتقاد أيضاً. وهو ما يبدو في المذهبية المادية التي تسربت إلى الشباب الإسلامي، وفي العلمانية التي أصبحت مذهباً لكثير من النخب المثقفة في العالم الإسلامي، وهي التي تسيطر على الخطوط التربوية والاقتصادية والسياسية للأمة، فانطبعت هذه المظاهر كلها بطابع الأيديولوجيا الغربية إن قليلاً أو كثيراً.

وبين هاتين المشكلتين تضافر وتآزر بحيث يهين ضعفاً الرابطة بين الحياة العلمية للمسلمين وبين مرجعيتهم العقيدية للتأثير الأيديولوجي الغربي، كما أن هذا التأثير الأيديولوجي يوسع الشقة بين تلك الحياة ومرجعيتها العقيدية سواء على المستوى الفكري الثقافي أو على المستوى السلوكي العام، فإذا بواقع المسلمين يجري على غير أيديولوجية إسلامية بيّنة، بل إن تلك الأيديولوجية في صياغتها الفلسفية التي تستطيع بها أن تواجه التحدي، وتهدى الحياة تكاد تكون غائبة.

أما البنية الفكرية الثقافية السائدة اليوم بين الناس فقد تغيرت كثيراً بالنسبة لتلك التي كانت سائدة في عهود ماضية، حيث أحدثت الثورة العلمية الصناعية انقلاباً ثقافياً يكاد يكون عالمياً، ذلك أن العقلية الصورية التي كانت سائدة قديماً حلت محلها منذ عهد ديكارت عقلية علمية تخضع في الفهم والإقناع للبرهان المبني على معطيات العلوم الثابتة رياضية وطبيعية كما اكتسبت العقلية أيضاً صفة العملية، فأصبحت تتفتح في الفهم والقبول للخطاب الذي ينطلق من معالجة المشاكل العملية، اليومية أكثر من انفتاحها للخطاب الفلسفي المجرد. لقد أصبحت هذه الخصائص سائدة في العالم الغربي، وهي في طريق السيادة في العالم الإسلامي الذي كانت له خصائص في عهد ازدهاره الفكري في القرون الأولى بتكوين من القرآن الذي يجعل النظر في الكون مدخلاً للاقتناع العقلي.

وإنما أبرزنا هذه الخصائص في بنية العقلية الحديثة إشارة إلى أن المنهج الذي استخدمه الفكر الكلامي بعد القرن الخامس أصبح منهجاً لا يلائم عقلية اليوم، إذ هو منهج مبني على المنطق الصوري في أساسه، وهو منطق لا يهتم بالواقع وإنما ترتبط الحقيقة فيه بتناسق المعطيات المجردة فيما بينها وإن خالفت الواقع. ولا زالت آثار هذا المنهج باقية عند شق من المنتسبين إلى الفكر الإسلامي إما بصفته الأصلية أو بصفة جديدة حافظ فيها على الطابع التجريدي العام، ويكاد يكون الخطاب الفكري الإسلامي اليوم محكوماً بهذه التجريدية في الخطاب.

المبحث الرابع: علم الكلام الجديد. الولادة والمشروعية.

المطلب الأول: الولادة.

تعود بذور التفكير الكلامي الجديد على الساحة الإسلامية إلى القرن التاسع عشر الميلادي؛ أي إلى زمن شروع التحديات الفكرية والثقافية الغربية التي رافقت الاستعمار الغربي الفرنسي والبريطاني للعالم الإسلامي. وقد كان للمستشرقين دورٌ فاعل في تكوين هذا الجو العام نتيجة الانتقادات الحادة التي وجهوها إلى مرافق الفكر الإسلامي كافة لا سيما السنّة النبوية الشريفة، وقد انبرى جيلٌ من العلماء في تلك الفترة لمواجهة هذا الواقع الفكري المرفوض في الوسط الديني، وكان أبرز هؤلاء: العالم الهندي الشبلي النعماني، السيد جمال الدين الأفغاني في رده على الدهريين، وجاء بعد ذلك جيلٌ آخر تمثل بالشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا، ومحمد إقبال وغيرهم؛ فسجلوا أبحاثاً هامة على هذا الصعيد، إلى أن وصل الحال إلى أمثال محمد مجتهد شبستري، العلامة الطباطبائي وتلميذه الشهيد مرتضى مطهري، وإلى الدكتور علي شريعتي، والسيد قطب، والسيد محمد باقر الصدر، ومالك بن نبي، وغيرهم؛ فأغنوا علم الكلام بالكثير من الدراسات والأبحاث القيمة مع عشرات من العلماء الآخرين في شتى أنحاء العالم الإسلامي.

إن المحاولات الأولى لرواد "علم الكلام الجديد"، أدت إلى تحفيز مجموعة من بعض أهل الاختصاص في الفلسفة وأصول الفقه والعقيدة والفكر الإسلامي، الذين رأوا ضرورة تجديد علم الكلام، ووضع أسس منهجية جديدة لحل مشكلات العصر، بحسب وجهة نظرهم، وتشابكوا مع منتجات الفلسفة الغربية، ولا سيما فلسفة الدين. ولئن كانت هذه المحاولات لا تزال في بواكيرها الأولى، فإن الأمر لا يخلو من أسئلة وإشكالات تستدعي مقاربة الإجابة عنها. وفي هذا السياق، انطلق المتكلمون الجدد من تساؤلات جوهرية منها: أيقوم علم الكلام الجديد على القطيعة التامة مع علم الكلام القديم، أم أنه يستمد منه أساسه المنهجي ويطوره ويبني عليه؟ وبطريقة أخرى: أيعد علم الكلام الجديد امتداداً لعلم الكلام القديم في منهجه وقضاياها، أم هو بناء جديد بأصول جديدة وأهداف جديدة؟ هل هدفه الدفاع عن عقيدة فرقة بعينها من فرق الإسلام، أم لا يلتفت إلى هذه الجوانب أصلاً؟ هل هو منفتح ليشمل الأديان والملل الأخرى، أم هو، على طريقة علم الكلام القديم، يهدف بالضرورة إلى إبطالها؟ وما المشكلات التي يحاول علم الكلام الجديد حلها؟ هل يقوم على أساس من المدافعة والحجاج والبرهنة والمنافحة وفق نظرية "الفرق بين الفرق" (عنوان كتاب للمتكلم عبد القاهر البغدادي)، أم يسعى إلى منطوق آخر يقوم على الوفاق و"الجمع بين الفرق"؟.

إن نظرة سريعة لما يدور في أروقة الأقسام الدراسية وحجرات ومدجات الدروس والمحاضرات الجامعية الخاصة بعلم الكلام اليوم تكشف عن هوة سحيقة بين واقع المسلمين، وما يعجز عن حل مشكلات دينية وثقافية، وما يلقي على طلبة العلم من دروس فكرية تتصل بعلم الكلام، هذا العلم الذي كان يمثل خط الدفاع الأول والحصن الحصين ضد حملات التشكيك في الإسلام وعقائده، والذي أصبح الآن تراثاً ثقافياً يتعرف الطالب خلاله على آراء وأقوال وحجج الأقدمين التي واجهوا بها حملات المغرضين والتي اعترضت سبيل الدعوة في عصرهم، فيدرس الطالب أصول المعتزلة، من العدل والتوحيد والوعد والوعيد و المنزلة بين المنزلتين والأمر والنهي عن المنكر، وتفرعات هذه المسائل وسلسلة الحوارات المتبادلة بين أوائل المعتزلة والمتأخرين منهم، وبين المعتزلة والأشاعرة، ثم بين اتباع المدرسة الأشعرية ومن شابعهم في الرأي.

وأصبح مقياس المستوى العلمي للطالب مرتبطاً بمدى حفظه لآراء هذه المدرسة أو تلك، وكيفية إبطال حجج المتكلمين، والانتصار لبعضها. ونسج على نفس المنوال شيوخ المذاهب المعاصرين دروساً في علم الكلام لا ترتبط بواقع الحياة اليومية، بل اكتفت المؤلفات المتناولة لهذا العلم بسرد الجانب التاريخي له أو مبرزة متعصبة لفرقة دون أخرى. فأصبح مجال تناول علم الكلام تنافسياً بين الآخذين فيه. تاركين الساحة لدعاة التغريب والتشيع لنشر أباطيلهم وسومومهم التي تجاوزت ما هو فكري إلى ما هو سلوكي واقعي يجسد حقيقة معتقدات فاسدة وباطلة.

المطلب الثاني: المشروعية.

من هنا كانت الحاجة ملحة إلى تجديد هذا العلم، انطلاقاً من مواضيع يتفق عليها العلماء والمفكرون، نقترح بعضها وهي كالتالي:

-تحريك العقل المسلم ولملمته للخروج من الواقع المتردي في الجانب العقدي والسلوكي، وحرص دعاة الإصلاح على نهوض الأمة بأن يؤسسوا إصلاحهم على العودة لأصول الاعتقاد الصحيح الذي فهمه الصحابة الكرام رضي الله عنهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم²⁶.

-حسن تشخيص علاقة بين الغرب والشرق وما صاحب ذلك من تغيرات فكرية وسياسة اقتصادية كان لها تأثير على الفكر الديني عامة والفكر العقدي خاصة، والقصد من ذلك اجتثاث كل شيء داخل على الخصوصية العقدية لأمة الإسلام وتطهيرها مما لحقها من شوائب.

-الوقوف على النظريات التي لبست ثوباً علمياً بشكل أو بآخر وألقت بتلابيبها على مسائل العقيدة تأثراً بثقافات غريبة، كما هو الشأن بالنسبة للدهريين الذين حاول "محمد عبده" و"محمد إقبال" و"وحيد الدين خان" التصدي لهم. في هذا الصدد يتحدث محمد إقبال اللاهوري عن الظروف الداعية إلى التجديد الديني فيقول: "ظلّ التفكير الديني في الإسلام راكداً خلال القرون الخمسة الأخيرة، وقد أتى على التفكير الأوربي زمنٌ تلقى فيه وحي النهضة عن العالم الإسلامي، ومع هذا فإن أبرز ظاهرة في التاريخ الحديث هي السرعة الكبيرة التي ينزِع بها المسلمون في حياتهم الروحية نحو الغرب، ولا غبار على هذا المنزع، فإن الثقافة الأوروبية في جانبها العقلي ليست إلا ازدهاراً لبعض الجوانب المهمة في ثقافة الإسلام، وكل الذي نخشاه هو أن المظهر الخارجي البراق للثقافة الأوروبية، قد يشلُّ فنعجز عن بلوغ كُنْهها وحقيقتها، وكانت أوروبا خلال جميع القرون التي أصبنا فيها بجمود الحركة الفكرية تدأب في بحث المشكلات الكبرى التي غني بها فلاسفة الإسلام وعلماءه عناية عظيمة... فلا عجب إذاً أن نجد شباب المسلمين في آسيا وإفريقية يتطلّبون توجيهاً جديداً بعقيدتهم... أضف إلى هذا أنه لا سبيل إلى تجاهل الدعوة القائمة في أواسط آسيا ضد الدين على وجه عام، وضد الإسلام على وجه خاص"²⁷.

-التجديد في طريقة التأليف والتفكير في علم الكلام التي يجب أن تتجاوز نقاط الجدل التاريخي في قضايا لم تعد موضوع اهتمام المسلم المعاصر، فضلاً على أنها ليست من أصول الاعتقاد وفق منهج أهل السنة التي يجب أن

²⁶ - الدكتور محمود الشافعي، المدخل إلى علم دراسة علم الكلام، ص: 125 بتصرف.

²⁷ - محمود إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ص: 14.

نعيد الأمة الإسلامية إلى دائرة الركب الحضاري.

وقد أجمل محمد الغزالي -رحمه الله- دواعي التجديد في علم الكلام حيث ذكر سبب تأليفه لكتاب (عقيدة المسلم) بحيث قال: "إن ما وصل إليه علم الكلام أبعد عن حياة الناس بل وألجأهم إلى التصوف برغم ما فيه... كما أن الجدل الذي دار بين الفرق قديما أبعد العلم عن هدفه الحقيقي، بل إنه أدخل المسلمين في تشقيقات لا حاجة لهم بها... ثم يقرر أن العصر الحديث لم تعد كتب علم الكلام القديم تصلح له نظرا لوجود مذاهب مادية جديدة، وحوارات جديدة وفهوم وعلوم جديدة... ويرى أن الناس بحاجة إلى عقيدة واضحة ومقنعة؛ وضوح والاقناع المنهج القرآني، ليعودوا مرة أخرى إلى إيمان لا تذهب حلوته"²⁸.

يقول أبو اليزيد العجمي عن انفصال علم الكلام عن الواقع: "فعلى الرغم من أننا نجد علم الكلام في فترات ازدهار قد خاض في معارك طاحنة، أبلى فيها بلاء حسنا في مجال الدفاع عن العقيدة إلا أنه في عصوره الأخيرة بات يعرض التراث دون ابداع أو تجديد، ليقدم فيها العقائد الإسلامية في صورة مثالية منقطعة الصلة عن الواقع الإسلامي المعاش"²⁹.

وبناء على ما سبق من عوامل نشأة علم الكلام وما فيه من تأثير في الحياة الفكرية وحفظ صفاء العقيدة ورد شبه المتقولين فيها، إلا أنه يمكن أن نطرح سؤالاً: هل يجوز أن نقول هل هناك تجديد لعلم الكلام؟ الجواب: أنه ومنذ أكثر من قرن مضى، أي منذ عام 1200هـ وجدنا أصواتا في المحيط الإسلامي تدعو إلى تجديد علم الكلام، بمعنى إصلاحه وتوظيف العقيدة لتصدي للمشاكل التي تعيشها الأمة حضارياً وفكرياً ولاسيما بعد الغزو الفكري الغربي من خلال ما يروجه من تيارات متنوعة ومتناقضة مع خصوصيات الأمة الدينية والثقافية.

وكتب هؤلاء الأساتذة والشيوخ توجب تجديد وتطوير الفكر الإسلامي، وتدعو علماء الأمة إلى الاشتغال على هذا الشق التجديدي باعتباره مصدر وحدتها. فالدنيا تتطور وتتغير في كل العلوم والمعارف؛ ولأن الجمود يؤدي حتماً إلى التخلف والركود في كل شيء يتصل بالتفكير الإنساني³⁰.

إن علم الكلام بما راكمه من تراث هو في أمس الحاجة اليوم أن ينحو منحى التجديد في منهجه وقضاياه ترتيباً وتوسيعاً ليؤدي غاياته في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، إقناعاً للمخاطبين بها ورداً للواردين عليها بالهجوم، يقول عبد المجيد النجار: "وليس المقصود بهذا التجديد إلغاء السابق في هذا العلم، ولكن المقصود به الإضافة إليه وإثرائه في المادة والأسلوب بم يستطيع أن يجابه المستجدات من مطالب الفهم والاقناع ومن عوادي المطاعن الطارئة، وذلك مع الحفاظ على المنجزات الماضية فيه كمخزون تراثي ثري، تقع العودة إليه عند الحاجة"³¹.

²⁸- محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ص: 15.

²⁹- أبو اليزيد العجمي، الحضارة الإسلامية وجه جديد، ص: 112-117.

³⁰- محمد مجتهد شبستري، مدخل إلى علم الكلام الجديد، ص: 1 بتصرف.

³¹- الدكتور عبد المجيد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، ص: 137.

خلاصة:

دخل علم الكلام مرحلة السبات وحيل بين العقل المسلم وبين ممارسة النقد، وانطفأ النقاش الحر الذي ساد الحياة العقلية عند المسلمين في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، ولم يزل الفكر الإسلامي المعاصر ينوء بتركة تلك المرحلة ولم تزل سلطة السلف تقمع المبادرات الجادة في تقويم مسار التفكير الإسلامي والتعرف على العناصر المعيقة للعقل المسلم.

ومما ينبغي التذكير به هنا، أن قصور علم الكلام التقليدي وعجزه عن الوفاء بالمتطلبات العقديّة للمسلم لا يعود فقط إلى ما مرت به الحضارة الإسلامية، وإنما يضاف إلى فلك مشكلات أخرى غير أن جل هذه المشكلات تتفرع من تلك، وإن كانت ربما تبدو للوهلة الأولى مستقلة عنها في أثرها.

ومن هذه المشكلات اعتماد الكلام القديم على الطبيعيات الكلاسيكية والاستناد إلى معطياتها كحقائق نهائية بينما نسخت العلوم الطبيعية الحديثة معظم الأفكار والفرضيات التي قامت عليها الطبيعيات بالأمس وبرهنت الاكتشافات الحديثة لقوانين الطبيعة على أن الكثير من فرضيات تلك الطبيعيات وأفكارها أوهاام محضة.

كما أن الكلام التقليدي اقتصرت أبحاثه على مجموعة مسائل، ما لبث الخلف يكرر هذه المسائل ذاتها ويفكر في داخلها حتى تكونت لها حدود صارمة، ولم يجرؤ أحد على تخطيها. يقول في هذا الصدد الدكتور محمد بوهلال: "وصار مدلول العقيدة هو تلك المسائل خاصة، واتخذ المتكلمون نسقا محددًا في ترتيبها وظل هذا النسق هو في المدونات الكلامية"³².

وقد أدى ذلك إلى حجب مباحث هامة في علم الكلام لعل من أبرزها مبحث الإنسان، يقول المفكر الإيراني محمد باقر الصدر: "فلم يدرج في مؤلفات المتكلمين مبحث خاص بالإنسان يتناول تأصيل موقف نظري يحدد موقع الإنسان في سلم المخلوقات، أي منزلة الإنسان وقيمه بالنسبة إلى غيره من المخلوقات كالملائكة والجن وغير ذلك والهدف من وجوده وطبيعته وظيفته وأنماط حياته وثقافته وعيشته وعلاقتها بما يشكل لديه من رؤية كونية، وما يرتبط بذلك من مسائل بينما نجد قضية الإنسان تتصدر القضايا التي يعالجها القرآن"³³.

على أن أهمية هذه القضية تتنامى مع تطور الحياة الاجتماعية وشيوع ألوان القهر والاستبداد وامتهان الإنسان وإهدار كرامته وتدجينه على المفاهيم والقيم الرديئة فما لم تتوفر على صياغة رؤية كونية تفصح لنا عن مكانة الإنسان وتحدد نوع علاقته بالدين، وتؤكد أن الدين جاء لتكريم الإنسان وهدايته وخدمته وإلا ستغدو دعوتنا لتحرير الإنسان مجرد شعارات لا مضمون لها.

نتائج البحث:

-تصحيح العقيدة، بحيث تصبح عقيدة سليمة تشيع في الأمة بقوتها وعمقها ووضوحها وبساطتها وتامها، فتخالط بشاشتها القلوب، وتنقي طهارتها العقول، وتهيمن على منطلقات الأفراد والجماعات، وتدين الأمة بها وتتفاعل معها، وتفجر طاقات أبنائها في العطاء والإبداع والعمران.

-النظر المنصف الناقد المستنير للتراث الإنساني المعاصر، والحضارة الراهنة لمعرفة ما يقبل منها وما يرفض

³²- الدكتور محمد بوهلال، إسلام المتكلمين، ص: 235.

³³- محمد باقر الصدر، موجز في أصول الدين، ص: 21-25.

دون تبعية مطلقة أو رفض مطلق، بحيث تتميز إيجابيات هذه الحضارة عن سلبياتها، وخيرها عن شرها، ونفعها عن ضارها.

-حسن النظر في التراث الإسلامي الهائل، بحيث يتحقق الاعتزاز به والانتفاع منه دون تقديسه، أو المنع من مناقشة أي شيء فيه، فمصادر الإسلام شيء والتراث شيء آخر.

-العناية بتصحيح مناهج الفكر، وكليات الأمور والقواعد والضوابط الأساسية، بدلا من ملاحظة الجزئيات المتغيرة باستمرار، ذلك أن الجزئيات غير متناهية، بخلاف المناهج والكليات والقواعد، ومن هنا وجبت العناية بتصحيحها، والتركيز عليها، لأنها تصحح حركة العقل، وتضبط مسيرته، وتوصل موازينه مما يجعل نشاطه في الاتجاه الصحيح، والسلوك فرع عن التصور.

-ربط المناهج بالواقع الحياتي للأمة المسلمة فهذا يساعدها على تلمس الحلول من ناحية، ويجعل لها عطاءات علمية من ناحية أخرى، فتتجو بذلك من أن تظل الحلول نظرية أو متخيلة.

-تحقيق تصور حضاري إسلامي يمكن من بناء أمة ومجتمع ودولة حديثة قوية ومتماسكة معطاءة.

-اعتبار العقيدة والفكر والمعرفة والمنهج نسقا معرفيا متكاملًا يمكن تقديمه إلى كل فصائل الأمة بشكل يحقق قناعاتها الثقافية والفكرية ويرببها عليها.

-إشكالية تجديد علم الكلام في الفكر الإسلامي المعاصر، انقسم إلى تيارين سائدين في هذا المجال: الأول ينادي بالتجديد من داخل علم الكلام القديم بتوسيع مبانيه وموضوعاته، والثاني يرى أن المشكلة أعمق من ذلك ويسعى إلى قطيعة منهجية ومعرفية مع علم الكلام، وتدشين علم بديل باسم: "علم الكلام الجديد"، يختلف في منهجه ومسلماته، ويتوسع في الموضوعات.

-ضرورة التطرق للموضوعات الجديدة (المجتمع والإنسان الفرد، الحرية والأخلاق، حقوق الإنسان، التجربة الدينية للإنسان، الأقليات الدينية، التعددية الدينية، التفسيرات النسوية للقرآن الكريم.. الخ). على غرار الموضوعات التي قام عليها الكلام الكلاسيكي القديم في الإلهيات والنبوة والوحي وغير ذلك، وفق تصور جديد للعلاقة بين الإنسان والله، واستشراف مكانة جديدة للدين في الحياة البشرية تعبر عن الإنسان المعاصر، والعلاقة بين الدين والعلم.

-تبحث هذه الدراسة -بشكل واسع- في جهود تأسيس العلم الجديد والآمال الإصلاحية المعقودة عليه من خلال دراسة تاريخية تحليلية لجهود دعاة العلم الجديد، وتحليل نماذج من الإنتاج المعرفي من خلال المقارنة مع علم الكلام التراثي أو القديم؛ للوقوف على مناحي الافتراق والالتقاء في المفاهيم والمناهج والموضوعات، ومدى نجاحهم في وضع أسس ومناهج وموضوعات يبنون عليها علم مستقل جديد.

-تفترض الدراسة أن الهوة كبيرة بين تطلعات مناصري الكلام الجديد وبين واقع إنتاجهم خلال عدة عقود، وأن الطريق نحو علم مستقل له موضوعاته ومناهجه ونظرياته يحتاج إلى مزيد من الجهود الجمعية الكبرى، إلا أن ما تحقق يمهّد لتأسيس علم جديد أو ثورة منهجية معرفية داخل العلم القديم.

-يحتاج المجتهد في علم الكلام وهو الذي يستطيع أن يبدي رأياً، ويناقش أدلة الآخرين ويقدم أدلة بديلة. إلى أدوات أساسية، تماماً كالنجار الذي يحتاج لمجموعة أدوات، فيجب أن توضع هذه الأدوات أمام المتكلم، لتمكّنه

من البحث في القضايا الكلامية الجديدة، وقد يكون عمل المتكلم من هذه الناحية أصعب من عمل الفيلسوف، وإن كان كلاهما معنياً بالمنظومة الاعتقادية.

توصيات البحث:

- هناك رؤية استراتيجية تؤمن بأن التجديد في علم الكلام هو بتحويل الجهد الكلامي إلى مؤسسة أو مؤسسة علم الكلام، وذلك من خلال الاهتمام بمجموعة أمورٍ من قبيل تشكيل مؤسسات ولجان لتصحيح التراث الكلامي وإخراجه من المكتبات القديمة ومن عالم المخطوطات وتحقيق هذه الكتب وطباعتها طباعةً عصرية.

- إقامة المؤتمرات الدورية والملتقيات والمنتديات التي تُعنى بالفكر الكلامي، وتأسيس مكتباتٍ كلامية متخصصة تتوفر فيها جميع المصادر والمراجع الكلامية القديمة والحديثة.

- تأسيس بنوك معلوماتية كلامية تسهل على الباحثين المادة الكلامية، وتحويل علم الكلام إلى عالم الانترنت والكمبيوتر ونحوها.

- الاهتمام بالإصدارات الكلامية المتخصصة من مجلاتٍ ونشرياتٍ ودورياتٍ، وكذلك تهيئة معاجم مفهومة ومعاجم مصطلحات ودائرة معارف ودور مراكز الترجمة التي تنقل الفكر الكلامي الإسلامية إلى الآخر.

- تأسيس مراكز تعليمية تتخذ الكلام مادةً أساسية، وتُلقح بها ما صار يلاصقها من علومٍ ومعارفٍ أخرى، كعلم المعرفة والنفس والهرمنوطيقا والألسنية والاجتماع وتاريخ العلوم والأسطورة وغير ذلك من المشاريع والبرامج الكثيرة.

- في إطار هندسة سالمة إلى حدٍ كبير للكلام الجديد، من الضروري الأخذ بعين الاعتبار تجربة الكلام القديم وقراءتها قراءةً موضوعية فاحصة؛ لتحديد عناصر القوة والضعف قدر الإمكان؛ بغية المحافظة على عناصر القوة وتفعيلها وتفادي المشكلات والآثار الناجمة عن عناصر الضعف.

- إن القطيعة التي تحدثها هذه التسمية بين الماضي والحاضر قد صارت في الوعي العام ذات طابعٍ إغائي غير محايد إطلاقاً، والشيء الملاحظ أحياناً هو أنّ بعض الباحثين المهتمين بدراسات علم الكلام الجديد، لم تحضر في نتاجاتهم أية نماذج من علم الكلام القديم، مع أنّ بعض الموضوعات كان لعلم الكلام القديم فيها تحليلاتٍ ودراسات معمقة وموسعة لا يمكن التغاضي عنها بهذه البساطة، وهذا ما يؤكد القلق المنطقي من الإغراق في التسمية الجديدة بحيث يحدث هذا الأمر نوعاً من فقدان الامتداد التاريخي للعلم نفسه.

- إن مشروع علم الكلام الجديد، على عظمتها، لكنّه حتى الآن وبالمقدار الذي أنجز منه لا تبدو فيه مقومات الانفصال والتفرد، نعم هو بصيغته المقترحة فيه ذلك، لكن التسمية يجب أن تحاكي الواقع لا الأمل؛ لأنّ عدم محاكاة المصطلح والتسمية للواقع الحاصل أو لمعطيات تجعل من تشكّل هذا الواقع أمراً ميسوراً يحدث فراغاً داخل المنظومة المعرفية؛ مما يتسبب في حدوث مشكلاتٍ عديدة، من هنا تنشأ العلوم الجديدة في الغرب عندما تصل مجموعة من الدراسات إلى مرحلة من التضخم الحقيقي تضطر العلماء إلى فرزها في علم جديد، يكون أكثر قدرة على استيعابها والتركيز عليها.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الدين الإسلامي، نقله إلى العربية وعلق عليه الدكتور محمد يوسف موسى، الدكتور علي حسن عبد القادر، الدكتور عبد العزيز عبد الحق، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثني ببغداد، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.
- 2- جلال الدين السيوطي، صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام، نشره وعلق عليه علي سامي النشار، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الأولى، 2016م/1437هـ.
- 3- عبد الجبار الرفاعي، مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، دار الهادي، مركز دراسات فلسفة الدين، بيروت، 2005م/1426هـ.
- 4- تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو، الطبعة الأولى، 1964م/1383هـ.
- 5- أحمد بن يحيى المرتضى، طبقات المعتزلة، عنيت بتحقيقه سوسنّه ديفلد فلزر، بيروت، لبنان، 1961م/1380هـ.
- 6- أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1985م/1405هـ.
- 7- أبو حامد الغزالي، قواعد العقائد، تحقيق وتعليق موسى محمد علي، عالم الكتب، الطبعة الثانية، بيروت، 1985م/1405هـ.
- 8- علي عبد الفتاح المغربي، حقيقة الخلاف بين المتكلمين معنى الخلاف وبدايته وتطوره- مظاهر الخلاف- أسباب الخلاف، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1994م/1415هـ.
- 9- الدكتور عبد الأمير الأعمش، الفيلسوف نصير الدين الطوسي "مؤسس المنهج الفلسفي في علم الكلام الإسلامي"، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الأولى، 1975م/1396هـ.
- 10- محمد بوهلال، إسلام المتكلمين، دار الطليعة ورابطة العقلايين العرب، بيروت، الطبعة الأولى، 2006م/1427هـ.
- 11- محمد باقر الصدر، موجز في أصول الدين المرسل-الرسول-الرسالة، دار سعيد بن جبير، الطبعة الأولى، 1996م/1417هـ.
- 12- عبد المجيد النجار، واقعية المنهج الكلامي ودورها في مواجهة التحديات الفلسفية المعاصرة، مجلة المسلم المعاصر، عدد 60، ماي 1991م/1412هـ.
- 13- الدكتور محمود الشافعي، المدخل إلى دراسة علم الكلام، دار القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي باكستان، الطبعة الثانية، 2001م/1422هـ.
- 14- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، دار الهداية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 2000م/1421هـ.
- 15- محمد الغزالي، عقيدة المسلم، دار نهضة مصر، الجيزة، القاهرة، الطبعة الرابعة، 2005م/1426هـ.

- 16- العجمي أبو اليزيد أبو زيد، الحضارة الإسلامية وجه جديد، دار السلام، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2006م/1427هـ.
- 17- محمد مجتهد شبستري، مدخل إلى علم كلام الجديد، دار الهادي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2000م/1421هـ.
- 18- عبد المجيد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى، 1992م/1413هـ.
- 19- عضد الدين الإيجي، المواقف في علم الكلام، عالم الكتب، بيروت، لبنان، (دون طبعة).
- 20- سعد الدين التفتازاني السمرقندي، شرح العقائد النسفية، ترجمة وتحقيق عبد السلام بن عبد الهادي شنار، مكتبة البشري، كراتشي، باكستان، الطبعة الأولى، 2009م/1430هـ.
- 21- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة بن خلدون، اعتنى بها: سامح دياب أحمد، فضاء الفن والثقافة، المغرب، (دون طبعة).
- 22- أبو ناصر الفارابي، إحصاء العلوم، تحقيق الدكتور عثمان أمين، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، 1949م/1370هـ.
- 23- ابراهيم الباجوري، تحفة المرید على جوهرة التوحيد، تحقيق علي جمعة محمد، دار السلام بمصر، الطبعة الثانية عشر، 2021م/1442هـ.
- 24- أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1990م/1411هـ.
- 25- عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم: عقائد الفرق الإسلامية وآراء كبار أعلامها، تحقيق محمد الخشت، دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة الثانية، 1977م/1398هـ.
- 26- ابن رشد الحفيد، مناهج الأدلة في عقائد الملة مع مقدمة في نقد مدارس علم الكلام، تحقيق الدكتور محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، 1964م/1385هـ.
- 27- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، 1987م/1408هـ.